

تاريخ النشر: 2026/01/31

تاريخ القبول: 2026/01/22

تاريخ الاستلام: 2025/11/23



إشكالية ضبط المفاهيم اللسانية عند الباحثين العرب المحدثين جهود حاتم الضامن أنموذجا

ذهبية حمو الحاج

Dehbia.hamoulhadj@ummt.dz

جامعة مولود معمري-تيزي وزو/الجزائر

THE ISSUE OF REGULATING LINGUISTIC CONCEPTS AMONG MODERN ARAB RESEARCHERS: THE EFFORTS OF HATIM AL- DHAMIN AS A MODEL

Dehbia HAMOU LHADJ

Dehbia.hamoulhadj@ummt.dz

Tizi-Ouzou University / Algeria

شكّلت اللغة البشرية موضوع اهتمام عدد كبير من الباحثين من تخصصات مختلفة، فحظيت بذلك بدراسات تلمّ بها من جوانب متعدّدة: صوتية، وصرفية، وتركيبية، ودلالية، ومعجمية، وتداولية.... ودراستنا هذه تستهدف إعادة النظر في عدد من المفاهيم اللسانية المتداولة في عصر سوسور بعد صدور كتابه بصفة خاصّة، ومحاولة قراءتها من منظور وصفي ونقدي، ومن أجل هذا الغرض تمّ اختيار جهود اللساني حاتم الضامن لما فيها من تقاطعات وتيسيرات للمفاهيم اللسانية السوسورية قصد تقديمها للقارئ العربي المبتدئ بخاصّة. توصلنا في دراستنا هذه إلى أنّ الدرس اللساني المعاصر لا يزال بحاجة إلى إعادة قراءة مفاهيمه، وتفحص مآلاته وأبعاده في تشكيل مستقبل الدّراسة اللسانية للغة البشرية، ويعدّ حاتم الضامن من بين الباحثين الجادين في محاولته تقريب المعالجة العلمية للغة من خصائص اللغة العربية، وتمكينها من الاطلاع عليها والاستفادة منها لمواكبة ركب التطوّر اللساني الغربي بما يفرضه من مصطلحات، ومفاهيم، ومناهج جديدة. كلمات مفتاحية: اللغة، اللسانيات، المفاهيم اللسانية، التحليل اللساني، نظرة نقدية

ABSTRACT:

Human language has been the focus of interest for a large number of researchers from various disciplines, resulting in studies that approach it from multiple perspectives: phonetic, morphological, syntactic, semantic, lexical, and pragmatic. Our study aims to reconsider several linguistic concepts prevalent in the post-Saussurean era following the publication of his book, and to attempt reading them from a descriptive and critical perspective. For this purpose, the work of linguist Hatem Al-Damen was selected for its intersections and facilitation of Saussurean linguistic concepts, intending to present them to the beginner Arab reader in particular. In our study, we concluded that contemporary linguistic study still requires a re-evaluation of its concepts and an examination of its outcomes and dimensions in shaping the future of linguistic study of human language. Hatem Al-Damen is considered among the serious researchers in his attempt to bring scientific treatment of language closer to Arabic language characteristics, enabling readers to access and benefit from it in keeping pace with Western linguistic development, along with the new terminologies, concepts, and methodologies it entails.

Keywords : Language, linguistics, linguistic concepts, linguistic analysis, critical perspective

1. مقدمة:

شهدت دراسة اللغة البشرية اهتمام باحثين من مختلف المشارب والمرجعيات والتوجهات، ما أفضى إلى ظهور عدّة نظريات تعجّ بمفاهيم لسانية منها البسيطة والغامضة، كثيرا ما شكّلت اختلاف اللسانيين وصراهم، نظرا لحاجتها إلى نقلها وترجمتها إلى اللغة العربية، التي تحتاجها قصد الالتحاق بالركب الحضاري في التطور المعرفي اللساني. ومن بين الذين كانت لهم جهود مميزة في إيضاح المفاهيم اللسانية وتبسيطها للقارئ العربي نجد حاتم الضامن، الذي ألّف كتابا قيّما جمع فيه العديد من المسائل اللسانية تتوزّع على عدّة محاور تلمّ بمفهوم اللسانيات وما يتعلّق معها من قضايا: صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية إضافة إلى ما يرتبط باللغة من صراع، ووظائف، وكتابة، وفكر... وبذلك يمكن أن يكون هذا الكتاب مرجعا مهما للقارئ العربي قصد التعرف على المجال اللساني وما يجاوره من قضايا جوهرية تشكّل أساس الدرس اللساني المعاصر.

وحثّ نبين مكان أهمية هذا المؤلف اللساني ونلقي الضوء على بعض آراء صاحبه في موضوع اللسانيات الحديثة، سننطلق من عرض محتواه في البداية بشكل مختصر، الأمر الذي سيتمّ من خلال معالجة نقطتين مهمتين في هذا البحث لعلّها تمكّننا من إعطاء الكتاب حقه من الأهمية التي اكتسبها في عرض المحتوى اللساني. ذلك أنّ العودة إلى محتوى كتاب "علم اللغة" لحاتم الضامن تستوجب منا الوقوف عند محتواه كخطوة أولى، قصد الكشف عن أهم القضايا المطروحة والتي لها علاقة باللسانيات السوسورية بخاصّة، ثم مرافقة هذه الأفكار ببعض الآراء الخاصّة بباحثين لسانيين آخرين مؤيّدّة تارة ومناقضة تارة أخرى بغرض تحميلها شحنتها المعرفية بشكل علمي دقيق.

2. مختصر محتوى الكتاب وأبعاده الوصفية والتحليلية:

1.2. المقديّة: اشتملت على بيان سبب التأليف، وهو أنّه قد عُهدَ إلى المؤلف "حاتم الضامن" تدريس هذه المادّة (علم اللغة) للطلبة بكلية الآداب، ولم يكن ثمة كتاب جامع يرجعون إليه في ذلك، فكان هذا الكتاب الذي استوعب مفردات المادّة وما هو ضروري من المعارف اللغوية التي ينبغي للمتخصص في علم اللغة أن يبدأ بها، ثمّ أوضح منهجه في الكتاب وهدفه منه؛ فقال: "ألقيت الضوء على أهم المؤلفات التي تناولت البحث في علم اللغة عند القدماء، وأكثرت من ذكر دراسات المحدثين ليقف عليها الطلبة وينهلوا منها...، ولا أزعم أنّي أتيتُ بجديد؛ إذ ليس لي في هذا الكتاب فضيلة... سوى أنّي جمعتُ فيه ما تفرّق... وفق المنهج المقرّر؛ ليسدّ النقص، وليسهل على الطلبة استيعاب المادّة" (حاتم صالح الضامن، 1989، ص 03). يبدو جليّا أنّ المؤلف حاول الأخذ بالدرس اللغوي القديم والدرس اللساني الحديث، إلا أنّ اهتمامه كان مع اللسانيين المحدثين أكثر، نظرا لاستهدافه الاستيعاب الأكبر عند الطلبة، وفي ذلك يقرّ

عدم اتيانه بالجديد في خصوص المادة اللسانية، وإنّما جهده كان منصبا على جمع المادة وفق ما تتطلبه المناهج التعليمية المقررة على الطلبة.

ثم شرع في مادة الكتاب، فتناول:

2.2. مقدمة في الدراسات اللغوية (قديمًا وحديثًا)

أشار حاتم الضامن إلى أشهر اللغويين القدامى ومؤلفاتهم في ذلك، ومنهم:

- الخليل بن أحمد الفراهيدي، وكتابه "العين".

- قُطْرُب (محمد بن المستنير البصري)، وكتبه: الأزمنة والأضداد والفرق.

- السيوطي، وكتابه المزهر في علوم اللغة.

وعَدَّ عشرين آخرين من أعلام اللغة العربية المشهورين.

ثم تناول المُحدثين، ومنهم:

- إبراهيم السامرائي، وعدداً من كتبه؛ ومنها "فقه اللغة".

- أحمد مختار عمر، وعدداً من كتبه؛ ومنها "علم الدلالة".

- أحمد مطلوب، وعدداً من كتبه؛ ومنها "بحوث لغوية".

- إميل يعقوب، وعدداً من كتبه؛ ومنها "فقه اللغة العربية".

- توفيق شاهين، وعدداً من كتبه؛ ومنها "علم اللغة العام".

- أحمد سليمان ياقوت، وعدداً من كتبه، ومنها "في علم اللغة التقابلي".

وغيرهم الكثير، حتى عدَّ أكثر من مائة وخمسين باحثاً، رتّبهم على حسب حروف الهجاء.

وانتقل إلى ذكر خمسين كتاباً من الكتب المترجمة في هذا المجال، بأسماء مؤلفيها ومترجميها، ورتّب الكتب على حسب حروف المعجم، ومنها على سبيل المثال:

- أسس علم اللغة؛ لـ "ماريوي"، ترجمة أحمد مختار عمر.

- التعريف بعلم اللغة؛ لـ "كريستال"، ترجمة حلمي خليل.

- علم اللغة العام؛ لـ "دي سوسور"، ترجمة يوثيل يوسف عزيز.

- البنيوية، لـ "جون بياجيه"، ترجمة عارف منيمنة وبشير أوبري.

- تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين، لـ "جورج مونان"، ترجمة بدر الدين القاسم.

وفي الحقيقة تعدّ هذه المؤلفات كتباً قيّمة في المجال اللساني، إذ بها أنير درب الباحثين العرب في دراسة اللغة العربية وفق المنهج البنيوي وما بعد البنيوي أيضاً.

3.2. علم اللغة العام:

تناول المؤلف تحت هذا العنوان تعريف علم اللغة؛ ويعدّ باختصار في رأيه (دراسة اللغة على نحو

علمي)، ويتضمّن المباحث الأربعة التالية: الأصوات، والصرف، والنحو، والدلالة، ثم بيّن أساسياته

وأهدافه. يشير المؤلف في هذا الصدد إلى أنّ علم اللغة العام يختصّ بتقديم المعلومات التي تفيد فهم اللغة البشرية، مثلما يقدم الوسائل التي تساعد على دراستها، ما يتبلور على شكل مناهج تميّزها العلمية والموضوعية. وينتبه المؤلف إلى توظيف مصطلح علم اللغة، في مقابل "علم اللغة العام" Linguistique générale الذي وضعه سوسور، وباعتبار هدف علم اللغة العام الذي يتمثل في وضع نظرية في اللغة، فإنّ هناك من الباحثين من يطلق عليه تسمية "علم اللغة النظري" Linguistique théorique، وإلى جانب هذا ارتباط بعلم اللغة العام صفة الوصف إلى حدّ أن دُعي بعلم اللغة الوصفي، الذي يهتم بدراسة وتحليل الخصائص الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية للغة، ورغم ذلك هناك من العلماء من يذهب إلى التمييز بينهما.

يشير المؤلف إلى عدم اشتغال علم اللغة العام بمفرده، وإنّما هو بحاجة إليه من منطلق خاصيّة التأثير والتأثر، فيمكن الحديث عن تعاقب المراحل في دراسة اللغة البشرية، إذ تكمن مهمّة علم اللغة الوصفي في وصف المادة اللغوية المدروسة وصفا علميا دقيقا مستندا في ذلك إلى نظرية في اللغة، وبذلك يقدم لعلم اللغة العام النتائج التي بإمكانه الاشتغال عليها.

ومن بين أهداف علم اللغة العام، إيضاح العلاقات الموجودة بين اللغات والمجتمع والجوانب الحضارية المختلفة، والكشف عن عوامل انتشار اللغات وانقراضها، والتجديد فيها، إضافة إلى الكشف عما يربط علم اللغة العام بالعلوم الإنسانية المجاورة كعلم النفس، وعلم الاجتماع.... وفي الأمر ذاته تقول خولة طالب الابراهيمى "علم اللسان هو الدّراسة العلمية الموضوعية للسان البشري، أي دراسة تلك الظاهرة العامّة المشتركة بين بني البشر والجديرة بالاهتمام والدّراسة بغضّ النظر عن كلّ الاعتبارات الأخرى، التي لا تعدّ من صلب اهتمام اللسانيين تختصّ بجوانب ثانوية للسان بحكمه ظاهرة معقّدة ومركّبة، يمكن أن تتناول من زوايا عديدة اجتماعية نفسية، فزيولوجية وفزيائية تتكفّل بها علوم أخرى مثل علم الاجتماع، وعلم النفس، وعلم فزيولوجيا الأعضاء وعلم الصّوت الفزيائي" (خولة طالب الابراهيمى، 2006، ص 09).

4.2. المصطلحات الشائعة في الدّراسات اللغويّة:

أمّا عودة المؤلف إلى عنصر المصطلحات الشائعة في الدّراسات اللغوية، إثارة لبعض القضايا المرتبطة بالمصطلحات المتداولة، وقد أشار إلى اللغة، واللهجة، وفقه اللغة، وعلم اللغة الذي كان دخيلا على الدّراسات اللغوية في الجامعات العربية حديثا، ومهمّته تكمن في معالجة مسائل اللغة معزولة عن أيّة لغة من اللغات، وتبلور الفكرة التي حدّدها سوسور، وهي "دراسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها"، ولا

تخصّ هذه الدّراسة آية لغة من اللّغات، وإنّما تخصّصها بالنّظر إليها على اختلافها بغرض الكشف عن الحقائق والخصائص التي تشترك فيها، وجاءت هذه النّتيجة بعد عرض المؤلّف للمصطلحات السّابقة الذّكر، وتحدّدت اللّغة عند القدامى والمحدثين بتعبيرات مختلفة مفادها جميعا ما يملّي الوظيفة التّواصلية بواسطة تركيب لفظي معيّن، حتّى اعتبرت اللّهجة من هذا المنطلق لغة، إذ كثيرا ما نسمع بلغة تميم، ولغة قريش... وهي في الحقيقة لهجات تابعة لرقع جغرافية محدّدة، الأمر ذاته الذي جعل البعض يطلق عليها مصطلح "اللّحن"، بينما نضطلع للّهجة بتعريف جديد في العصر الحديث، وهو "اللّهجة... مجموعة من الصّفات اللّغوية التي تنتمي إلى بيئة خاصّة، ويشترك في هذه الصّفات جميع أفراد هذه البيئة. والصّفات التي تميّز بها اللّهجة تكاد تنحصر في الأصوات وطبيعتها وكيفية صدورها" (حاتم الضامن، 1989، ص 33)، الأمر الذي يجعل الحدود الفاصلة بينهما غير واضحة، يقول سوسور "أمّا الفيلولوجيا (فقه اللّغة) فقد وضّحنا معالمه، فهو يتميّز عن علم اللّغة، مع وجود نقاط الاتّصال بين العلمين، والخدمات المتبادلة التي يقدّمها كلّ منهما للآخر" (فردينان دي سوسور، 1985، ص 25).

وفي الاجمال تناول المؤلّف تحت هذا العنوان: المفردات والمصطلحات بالشرح والتعريف، وهي: اللّغة، واللّهجة، وفقه اللّغة، وعلم اللّغة. وفي حديثه عن علم اللّغة يذكّر أنّه يستعمل هذا المصطلح عند بعض اللّغويين بمعنى: دراسة الألفاظ مصنّفة في موضوعات مع بحثٍ دلالتها. ثم بيّن أنّ ثمة تداخلا وخلطاً بين مصطلحي علم اللّغة وفقه اللّغة عند الباحثين قديماً وحديثاً، رغم أنّ الدّراسة اللسانية عند سوسير تقرّ أنّ النّظر إلى اللّغة في ذاتها ومن أجل ذاتها هو الموضوع الوحيد لعلم اللّغة، إذ "هي نظام، وهذا النّظام يوجد مستقلا عن الأفراد، الذين يحقّقون في الاستعمال اللّغوي إمكانات النّظام" (جرهارد هلبش، 2003، ص 69).

5.2. علم اللّغة والعلوم الإنسانيّة الأخرى:

تحت هذا العنوان تناول المؤلّف العلاقة الرّابطة بين علم اللّغة وغيره من العلوم الإنسانيّة؛ حيث تشترك في اهتمامها باللّغة بوصفها أهم مظاهر السلوك الإنساني، ووسيلة الاتّصال المكوّنة للجماعة الإنسانيّة. إذا كانت اللّغة هي القاسم المشترك بين العلوم الإنسانيّة، فمن المنطقي جدّاً أن تكون محل اهتمام هذه العلوم المختلفة، التي تكشف عن القضايا بأدوات متخصّصة، وبذلك يقدّم كلّ اسهامه فيما يخصّه بغرض اكتمال الدّراسة، لأنّ علم اللّغة لا يستطيع شيئا إزاء بعض الظواهر اللّغوية، وبذلك ينبغي الاستناد إلى العلوم الإنسانيّة المجاورة مثل الفيزيولوجيا التي تهتمّ بعلم وظائف الأعضاء، وعلم

الفيزياء الذي يهتم بالأمواج الصوتية، إلى جانب علم التشريح الذي يهتم بدراسة أعضاء النطق عند الإنسان.

وتوجّه إلى الحديث عن علم اللغة الاجتماعي، وعلم اللغة النفسي، وعلم اللغة والجغرافية اللغوية، وأفرد كلاً منها في موضوع خاص. علماً أنّ علم اللغة الاجتماعي (اللسانيات الاجتماعية) هو من العلوم الأكثر تقدماً وشيوعاً في الدراسات اللغوية الحديثة من حيث اهتمامه بالبحث في علاقة اللغة بالمجتمع، ودراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، وأساليب تغيّر البنية اللغوية في علاقتها بالوظائف الاجتماعية المختلفة، مثلما يهتم علم اللغة الاجتماعي بـ"اللهجات، ودراسة اللغة وأثر الجنس فيها، ودراسة الكلام المحظور اجتماعياً كالكلمات المبتذلة التي ينفر منها المجتمع" (حاتم الضامن، 1989، ص39)، فنظراً لشمولية القضايا التي يعالجها هذا العلم، يقوم حسن كزار بتحديدده على أساس "أنّ هذا المصطلح الذي وسم به الاتجاه الموجه إلى دراسة العلاقة بين اللغة والمجتمع، لم يكن منفرداً، بل ظهرت قبله ومعه مجموعة من المصطلحات، والسبب في ذلك أنّ دراسة اللغة وعلاقتها بالثقافة والمجتمع حقل واسع عريض إلى أبعد الحدود، وهذا الأمر ينفي أحقيّة علم واحد للقيام بهذه المسؤولية، فظهرت علوم أخرى أو فروع أخرى من العلم تناولت هذا الموضوع بالنظر والدّرس تحت أسماء مختلفة، حملت معها شيئاً من التشابك والتداخل في المصطلحات والمفهوم، لأنّها تعرّضت لدراسة الموضوع نفسه من زاوية أخرى على وفق اهتمامات العلم المعين ورجاله" (حسن كزار، 2018، ص16). بينما يهتم علم اللغة النفسي بما يربط بين اللغة والعقل البشري من قضايا لغوية بخاصّة مثل الاكتساب اللغوي، واللغة والفكر، واللغة والشخصية، ودراسة العيوب الكلامية...بينما يكمن اهتمام علم اللغة والجغرافيا اللغوية بتسجيل الواقع اللغوي للغات أو اللهجات على خرائط ممّا يشكّل ما يسمى بالأطالس اللغوية، يكون فيها اختصاص كلّ خريطة بكلمة أو ظاهرة صوتية معيّنة...وبذلك يكون اعداد الأطالس اللغوية أسبق في الوجود من معظم الإنجازات الوصفية الحديثة، وهو يعتمد إلى حدّ كبير على مفردات اللغة التي تعدّ في نظر الوصفيين في الدّرجة الأولى، ولكنّه مع ذلك اتّبع منهجاً يمكن أن يوصف على الأقل أنّه وصفي، وبأنّه خير مثل للعمل اللغوي تحت ظروف بيئة معيّنة" (ماريو باي، أسس علم اللغة، 1998، ص131). وإن شهدت البلدان المتقدّمة تطوّراً في مثل هذا الاختصاص، فإنّه في البلدان العربية لا يزال في مراحل الأولى رغم أهميّة وجوده في دراسة اللهجات دراسة علمية وفي عدّة مستويات لغوية، ممّا قد

يسهم في تدوين تاريخ اللغة العربية في أزمنة مختلفة ومتعاقبة، والتعرّف على تطوّر اللهجات العربية وعلاقتها بالفصحى وكذلك المقارنة بين العربية واللغات الأخرى.

ينتقل المؤلف إلى عرض ما يتعلّق بالمستويات اللغوية، التي كانت محلّ اهتمام الدراسات اللسانية البنيوية بخاصّة، وهي دراسة الصّوت، والصّرف، والنحو، والدلالة.

6.2. علم الأصوات:

تناول أول مباحث أو فروع علم اللغة العام، التي أشار إليها في الفصل الثّاني، فعرّف به تعريفاً شاملاً ولكن بصورة موجزة. ففي الصوت وقوف عند دراسته باعتباره فرعاً من فروع علم اللغة العام، وباعتبار تميّزه عن الفروع الأخرى المذكورة سلفاً، والوقوف على مميّزاته الفيزيائية والوظيفية ما يستوجب العودة إلى تركيبية الجهاز الصّوتي وكيفية اشتغاله في عملية إنتاج الصّوت، وانتقاله إلى ذهن السّامع وتشكيل ما يدعى بالدليل اللّغوي، فكلّ نظام صوتي في أيّ لغة كان يتكوّن من وحدات صوتية تحدّد هويتها بمجموعة من المميّزات، بل تلك التي تساهم وحدها أو مع غيرها في التّمييز بين معاني الكلم. وهذه الصّفات المميّزة بين معاني الكلم هي التي يجب الاعتماد عليها في التّحليل، لأنّها هي التي تساهم في البيان عن المعاني أمّا غيرها من الصّفات فليس لها هذا الدّور" (التواتي بن تواتي، 2012، ص 16).

7.2. بناء الكلمة (أي: علم الصرف)

وهو المبحث الثّاني أو الفرع التّالي من فروع علم اللغة العام، فعرّف بالكلمة، وبنائها، ثمّ تحدّث عن الوحدات الصرفيّة، ويمكن القول أنّ المؤلف قد حدّد الصّرف على أساس بناء الكلمة باعتبارها وحدة دلالية مهمّة، ومن المعلوم عدم تكوّن البنية اللّغوية من الوحدات الصّوتية وهي مفردة، وإنّما تتكوّن من وحدات صوتية مركّبة بغرض تشكّل الكلمة أو الوحدة الدّلالية الدّنيا أو ما يدعى عند الوظيفيين بالمونيم Monèmes نتاج تركيب الأصوات أو الوحدات غير الدّلالية الدنيا Phonèmes. مثلما انتبه المؤلف إلى تحديدات الصوت عند الباحثين القدامى والمحدثين، التي كانت فيها نقاط التّشابه والاختلاف، من حيث التّركيز على الوحدات الصّرفيّة، ثمّ عن أنواعها، ثمّ عن الأنماط الصّرفيّة، ثمّ عن التّغيرات الصّرفيّة.

8.2. بناء الجملة (أي: علم النحو)

وهو الفرع الثّالث من فروع علم اللغة العام، وخلص -بعد ضرب الأمثلة- إلى أنّه يُعنى بتحديد الوظائف المختلفة في الجملة والتّغيرات المصاحبة لها. وتناول بعد ذلك الكلام حول: الجملة بين النّحاة والبلاغيين، ثمّ المنهج التوليدي التحويلي وبناء الجملة. يستمر الانتقال في دراسة اللغة إلى النّاحية التّركيبية الخاصّة بالجملة، ويكون ذلك ممكناً بعد تحديد الوظائف المختلفة في الجملة والتّغيرات المصاحبة لها. ولتجسيد فكرة التّركيب في الجملة، يعود المؤلف إلى حدود الجملة عند النّحاة القدامى والبلاغيين، فلا بد أن تكون التّصورات مختلفة مثلما تكون كذلك بين النّحاة القدامى والمحدثين، إذ ركّز الأوائل على "نظرية العامل"، بينما استهدف البحث الحديث دراسة التّركيب الشكلي لعناصر الجملة على

أنّه وسيلة للتعبير عن "المعنى"، الذي يفقد مكانته في دراسة بناء الجملة. والاهتمام بالتركيب في الجملة لقي عناية كبيرة في مباحث كثيرة عند الباحثين القدامى، الذين وضّحوا ذلك بعدّة أمثلة تراهن على دور التركيب في جميع مستويات اللّغة بهدف إيضاح الوظيفة التي وُجدت من أجلها اللّغة.

والحديث عن التركيب وأهميّته ودوره أدّى بالمؤلف إلى العودة إلى المنهج التّوليدي التّحويلي، الذي ذاع وانتشر منذ صدور كتاب لنعوم تشومسكي بعنوان "البنى التّركيبية" سنة 1957، الذي كانت فيه العناية بالجملة وبنائها بعد أن نالت الكلمة والصّوت حقّهما من الدّراسة لما يقارب المائة عام، وبعد أن لوحظت النّقائص في الاهتمام ببنية الكلمة أيضا، كما أنّ الباحثين قد اهتموا إليها باستثمار الأجهزة الالكترونية وبروز دورها المميّز في البحث اللّغوي لتحقيق مزيد من الموضوعية والدّقة العلمية. والبنى التّركيبية في حقيقة الأمر مرتبطة بالفرد لأنّه المعني بالإمكانات اللّغوية وليس بطاقات اللّغة في حدّ ذاتها، فينبغي تحديد "الإمكانات التّعبيرية" التي يملكها الفرد أو مستخدم اللّغة، لأنّه الوحيد الذي بإمكانه إنتاج جمل جديدة متعدّدة وفهم جمل جديدة أخرى. إلى جانب ظاهرة تحويل اللّغة من خلال البنية العميقة والسّطحية وما يربطهما من علاقات، فإنّه بواسطة هذه الظّاهرة بالذّات يمكن إبراز الاختلافات الكامنة في علاقات الوحدات الصّرفية ودورها في بناء الجملة، وفي الصّد ذاته نجد تشومسكي يلخّص ذلك في قوله إنّ العملية اللّغوية تتألّف من ثلاثة مكّونات وهي المكوّن التّوليدي المركّبي، وهو أهمّ مكوّن وتشمل الوحدات التّركيبية لهذا المكوّن كلّ الجمل التّحويلية ذات النّظام الدّقيق. والمكوّن التّحويلي ويعني بذلك أنّه قادر على تحويل الجملة الأساسيّة إلى جملة أخرى (استفهامية، وشرطية، وتعجّبية...) والمكوّن الصّوتي-الصّرفي وهدفه يكمن في إنتاج جمل صحيحة في صياغات لغوية أخيرة سواء أكانت هذه الجمل منطوقة أو مكتوبة" (مازن الوعر، 1988، ص 93).

9.2. علم الدلالة:

وهو رابع أربعة من مباحث أو فروع علم اللّغة العام. تناول فيه: مفهومه، ومجال بحثه، وأشار إلى نشأة الكلام حولّه، وأنّها ضاربة في القِدَم، كما أنّه أشار إلى إغفال الدّراسات المعاصرة لجهود العرب القدامى! ذاكراً أهمّ جهودهم، وأبرز محاولاتهم، في سلسلة تطوّر الاهتمام الدلالي؛ فبدأ الحديث عن محاولة ابن جيّي، ثمّ محاولة ابن فارس، ثمّ عبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسيوطي...، كما أنّ المؤلّف لم يُغفل جهودَ الأصوليين والفلاسفة المسلمين أيضاً؛ كالغزالي والشريف الجرجاني، والفارابي وابن سينا، وابن رشد... ثمّ شرّع في الحديث عن علم الدلالة في العصر الحديث، ومتى ظهر هذا المصطلح.

علما أنّ تحديد هذا العلم مرتبط بعلوم أخرى، يقول هادي نهر "ولمّا كانت الدلالة مقصودة بمعنى اللفظ دون غيره، تحدّد (علم الدلالة) الاصطلاحي بكونه علما خاصّا بدراسة المعنى في المقام الأول، وما يحيط بهذه الدراسة أو ما يتداخل معها من قضايا وفروع كثيرة صارت اليوم من صلب علم الدلالة كدراسة الرّموز اللغوية (مفردات، وعبارات، وتراكيب)، وغير لغوية، كالعلامات، والإشارات الدالة" (هادي نهر، 2008، ص 14). انتقل المؤلّف إلى ترتيب قضايا علم الدلالة في المحاور أهمّها: المجالات الدلالية؛ وتناول فيها النظريّات والمحاولات الغربيّة في المجال الدلالي. انطلاقا من موضوع المجالات الدلالية وإشكالية تصنيف المفردات ضمن مواضيع تجمعها، يمكن الانتقال إلى الفكرة ذاتها ولكن في إطار المعاجم، التي أولاهها المؤلّف عناية مميّزة من حيث تقسيمها وذكر أهمّها عند القارئ العربي مستأنسا ببعض النماذج وقسّمها إلى:

-كُتُب الموضوعات؛ وأراد بها الرسائل اللغوية.

-كُتُب الأضداد.

-كُتُب الترادف.

-كُتُب المشترك اللفظي.

- المعاجم العربية (معاجم الألفاظ)، وذكر مدارسها:

أ-مدرسة العين؛ نسبة إلى كتاب "العين"؛ للفراهيدي، التي اعتمدت في الترتيب ثلاثة أسس: مخارج الحروف، والأبنية (هيئة الكلمة)، والتقاليب (تغيّر مواقع الأحرف).

ب-مدرسة الجهرة؛ نسبة إلى كتاب "جمهرة اللّغة"؛ لابن دُرَيْد، التي تميّزت باختيار الجمهور من الألفاظ دون الحوْشيّ والمستنكر، واعتمدت في ترتيبها على النِّظام الهجائي، واشتركت مع السابقة في الأبنية والتقاليب، لكنّها جعلت أساس الأبنية هو الرّئيس.

ت-مدرسة المقاييس؛ نسبة إلى كتاب "مقاييس اللّغة"؛ لابن فارس، التي اتّخذت الترتيب الهجائي أساساً رئيساً لترتيبها، وأعرضت تماماً عن نظام التقاليب، ولكنها اعتمدت نظام الأبنية بالتبّع.

ث-مدرسة الصحاح؛ نسبة إلى كتاب الجوهري "تاج اللّغة وصحاح العربية"، وانتخب له هذا الاسم؛ لأنّه اقتصر فيه على ما صحّ عنده من الألفاظ، وقد اختطّ له منهج الترتيب الهجائي، إلّا أنه طبّقه على أواخر الألفاظ ابتداءً وجعلها في أبواب، ثمّ رتّب ألفاظ كلّ باب على أوائلها وجعلها في فصول.

ج-مدرسة الأساس؛ نسبة إلى كتاب "أساس البلاغة"؛ للزمخشري، التي اعتمدت الترتيب الهجائي على أساس أول اللفظ.

-معاجم المعاني؛ وهي التي اتبعت نظام الترتيب الموضوعي للمفردات.

يمكن القول أنّ المستوى الدلالي قد حظي بمكانة مميّزة عند المؤلّف، إذ خصّه بالتّعريف والتّحديد المفهومي عند القدامى والمحدثين، مثلما ركّز على مداخل علم الدلالة في العصر الحديث والمصطلح ونشأته ومجالاته، إذ أنّ التحليل الدلالي لبنية اللّغة ركيزة ضرورية لكلّ الدّراسات التّاريخية والمقارنة والتّقابلية لدلالة الكلمة أو الوحدة الصّرفية، فمن الضّروري إيجاد منهج يتيح تحديد الدلالة في مستوى دلالي واحد بشكل دقيق. تقوم نظرية المجالات الدلالية على أساس جمع الكلمات وتصنيفها في مجموعات تختصّ كلّ منها بمجال من مجالات التّجربة البشرية ويكون لها رابط يجمعها، ولذلك توضع تحت مصطلح واحد يلمّ بها دلاليا، ولن نطيل الحديث عنها في هذا المقام نظرا للعد الهائل من الدّراسات الذي أنجز فيها.

10.2. العوامل المؤثرة في تغيّر الدلالة:

تحدّث حاتم الضامن في هذا المحور عن العوامل الخارجيّة التي لها أثر في تغيّر المعنى؛ وذكر منها على سبيل المثال: الحاجة إلى كلمة جديدة تكون أقدر على التعبير عن المقصود، ثمّ بيّن أنّ كلّ هذه التغيّرات التي تصيب اللّغة تقع على مرحلتين فقط، هي: مرحلة التغيّر نفسه، ثمّ مرحلة انتشار التغيّر. وبعد ذلك شرّع في بيان هذه العوامل، وهي:

1- الاستعمال اللغوي، وأسبابه أو عناصره، وهي: سوء الفهم، أو الابتذال، أو إحياء ألفاظ قديمة ذات دلالات مندثرة وإطلاقها على مستحدثات، أو الاقتراض.

2- العوامل التاريخية؛ وهي بقاء الألفاظ مع تغيّر الدلالات بشكل تدريجي.

ولم يرغب المؤلّف مغادرة الشّأن الدلالي إلا بعد أن يقدّم له حقّه من الاهتمام والدّراسة، يتوقّف على العوامل المؤثرة في تغيّر الدلالة انطلاقا من فكرة عدم ثبات اللّغة على حالها، وحتىّ إن بدا تقدّمها بطيئا في بعض الأحيان، إلا أنّ الأصوات، والتراكيب، والوحدات النّحوية، وأشكال الكلمات وما تنقله من معنى قابلة للتغيّر في أيّة لحظة زمنية ما، وللعوامل المؤثرة في ذلك من سوء الفهم، الابتذال، وإحياء الألفاظ القديمة، والاقتراض دور كبير يظهر من خلال كثير من الأمثلة التي انتقلت دلالتها من معنى إلى آخر، وفي ذلك تبعيّة للتطوّر الحضاري، والاقتصادي، والاجتماعي، والثّقافي...

11.2. نشأة اللّغة الإنسانية:

تناول حاتم الضامن في هذا الفصل ذكّر الخلاف بين العلماء والمفكرين في موضوع نشأة اللّغة، وأبرز المذاهب والنظريات في ذلك، حتى عدّ منها سبعة مذاهب. تناول المؤلّف هذه الإشكالية من حيث الأصل الذي انبثقت منه، ومن حيث تعدّد آراءهم وأفكارهم في هذا الشّأن، فانقسموا إلى فئات، كلّ فئة تؤيّد مذهبها وتتصوّر الأصح من بين كلّ المذاهب التي ذكرها المؤلّف وهي: الوحي والالهام أو مذهب التّوقيف، ومذهب المواضع والاصطلاح، ومذهب المحاكاة، ونظرية التنفيس عن النّفس، ونظرية

الاستعداد الفطري، ونظرية الملاحظة، ثم نظرية التطور اللغوي. وإن كانت المذاهب الأولى متداولة كثيرا في كتب اللسانيين والباحثين في مسألة اللغة الإنسانية، فإن نظرية التنفيس عن النفس تتلخص في نظر المؤلف في أسبقية مرحلة الأصوات الساذجة التلقائية الانبعاثية الصادرة عن الإنسان للتعبير عن أحاسيسه المختلفة والمتطورة عبر الزمن إل ألفاظ، ومن هذا المنطلق وفيما يذهب إليه جوزيف فندريس J. Vendryes فإن هذه النظرية ترجع نشأة اللغة الإنسانية إلى أمر ذاتي، ما يجعلها تختلف في توجهها عن نظرية المحاكاة إذ تفسر منشأ بعض المفردات، ورغم ذلك تبقى مجرد نظرية بحاجة إلى الدقة العلمية.

أما نظرية الاستعداد الفطري التي جاء بها اللغوي الألماني ماكس مولر M. Muller ودعاها بنظرية دينج دونج Ding Dong فتتلخص في كون الإنسان مزود بالقدرة على صياغة الألفاظ فطريا، إلى جانب فطريته في التعبير عن أغراضه بجميع الوسائل المتاحة، إلا أن القدرة النطقية عند الإنسان تستوي في وقت محدد ويستعان بها في وقت محدد أيضا. ورغم ما قدمه من تبريرات لوجود هذه النظرية، إلا أنه مما يبدو كثيرة الغموض والتعقيد ويجد فيها الباحث عدّة مشاكل، ومن أبرز العيوب افتراضها ظهور الكلمة الكلمات الأولى عند الإنسان بشكل كامل دون خضوعها لسنة التطور. في حين تبقى نظرية الملاحظة هي أيضا نظرية لم تتمكن من إعطاء حل لمشكلة نشأة اللغة الإنسانية، من حيث عدم توضيح كيفية وضع الأصول العامة الأولى، التي تتعلق حسب صاحبها بإشارات الإنسان وأعماله باعتبارها الأساس الذي أخذت منه الكلمات الأولى رغم أنه ليس من الممكن ربط جميع الكلمات بالأصول الأولى.

12.2. نشأة اللغة عند الطفل:

بيّن المؤلف في هذا الموضوع أن التكلم لا شك أنه أمر مكتسب، لا علاقة له بالوراثة ولا بالفطرة، ولكن لا بدّ من أن يجيب علم اللغة على أسئلة ما زالت تحتاج إلى الإجابة عليها، مثل: كيف يتعلّم الطفل اللغة؟ وهل يتعلّمها دفعة واحدة أم على دفعات؟ وهل هناك تفاوت لدى الأطفال في تعلّمها؟ وهل بإمكان الطفل إدراك دلالة الألفاظ التي يتعلّمها؟ وما أثر ثقافة الأهل على سرعة تعلّمه؟ وأسئلة كثيرة أخرى قد حاول المؤلف الإجابة عنها من خلال أساسيات ونظريات تتعلق بهذا الأمر وما يرتبط بمراحل اكتساب اللغة عند الطفل مثل مرحلة اصدار الأصوات، والمناغاة، والباءة، ثم مرحلة الكلام الذي يكون متدرجا من الجمل البسيطة إلى الجمل المعقدة، أي الوصول إلى مرحلة التركيب بعد تعلّم الألفاظ والمفردات، فلا بد أن تكون هناك علاقة بين اللغة والفكر عند البحث في نشأة اللغة عند الطفل، يقول ستيفن بينكر في هذا الصدد: "ويعرفون أن اللغة هي التي تحدّد الفكر، فاللغات المختلفة تجعل متحدثيها يرون الواقع بطرق متفاوتة، وهم يعرفون أن الأطفال يتعلّمون الكلام من أهلهم وممن يقتدون بهم" (ستيفن بينكر، 2021، ص 23)، فمن الواضح جدا أن اكتساب اللغة يستدعي بيئة لغوية وجهازا سمعيا سليما.

13.2. اللغة المشتركة واللهجات:

أثار المؤلف قضية اللغة واللهجات من باب الاشتراك في الوضع والاستعمال، فإلى جانب أية لغة من اللغات توجد مجموعة من اللهجات، فهي تعيش متصاحبة جنباً إلى جنب في اختلاف حيناً وفي تعايش حيناً آخر، وفي حالة تأثر وتأثير دائم يكون فيه نتيجة عامل التفريق وعامل التوحيد مجسدة لغات مختلفة لدى الشعب الواحد، وهي في الحقيقة لغات مختلفة: لغات خاصة، ولغات اجتماعية، ولغات محلية، ولهجات إقليمية، ولغات مشتركة، "اللغات الخاصة تنشأ من الانفصال الاجتماعي، لذلك كانت -من حيث المبدأ- لغات طبيعية كاللهجات تماماً، ولكنها تقوم دائماً على مادة لغة مشتركة، وتظل عادة تستمد منها غذاءها" (جوزيف فندريس، 2014، ص 235)، في حين تقوم اللغات المشتركة دائماً على وجود لغة تتخذ حيزاً معتبراً من المتكلمين بها نظراً لاشتراك أفرادها في الظروف التاريخية بخاصة، الأمر الذي يفسر بغلبة لغة من اللغات في مجتمع معين، وقد يدعوها البعض باللغة الوسطى، وذلك ما يمكن أن يفسر أيضاً العلاقة الموجودة بين اللغة المشتركة واللهجات، وقد تكون كلاهما منبثقتين من اللغة الأصلية مستمدتين منها المفردات، والقواعد، والتراكيب.

14.2. الصِّراع اللغوي... أسبابه ونتائجه:

تناول المؤلف في هذا الفصل الحديث عن الاحتكاك بين اللغات، وتأثر كلٍّ منها بالآخر، وتأثير بعضها على بعض. ويذكر في هذا السياق الأسباب المؤدية إلى ذلك، كما يُشير إلى عوامل القوة والضعف بين اللغات. ويذكر -أيضاً- بعض أمثلة الصِّراع الذي يحدث بين لغتين قويتين، والأعجب من ذلك الصِّراع الذي يحدث بين لغة مشتركة؛ حيث تكون المنافسة في هذه الحالة تدور حول انضمام دائم لعدد كبير من عناصر إحدى اللغتين إلى الأخرى، حتى ينتهي الحال بأن تفقد إحداها معالمها اللغوية، وتحدث التفرقة التي ستكون لها عواقب على التواصل الاجتماعي، لذلك نجد فندريس يقول: "أشرنا... إلى أي حدّ يعتبر توحيد اللغة ضرورة اجتماعية، ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوي لأصبح العالم أمام حشو من صوّر التكلّم التي لا تزيدها الأيام إلا تفرقاً، ولكن الذين يتحدثون إحدى اللغات يميلون دائماً إلى المحافظة عليها كما هي، وكذلك التبادل الكلامي الذي يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدي إلى توحيد اللغة" (جوزيف فندريس، 2014، ص 326). ويذهب المؤلف إلى تصنيف مراحل الصِّراع اللغوي وذكر القواعد التي تنصّ على عدم تغلب لغة على أخرى إلا بتوفر أسس معينة.

15.2. مناهج البحث اللغوي:

تحدث فيه عن توظيف العلماء لمناهج معينة في دراسة اللغة، أولها: المنهج المقارن، ثمّ المنهج التاريخي، ثم المنهج الوصفي. علم اللغة المقارن هو العلم الذي يتناول مقارنة مجموعة لغات تنتهي إلى

أسرة لغوية واحدة، ويعدّ أقدم منهج في علم اللغة الحديث، وشهد شيوعا في القرن التاسع عشر ميلادي. يعتمد على وجود تصنيف واضح للغات إلى أسر لغوية في محاولة الكشف عن القرابة بينهما، والتي تجسّدت بشكل علمي دقيق بعد اكتشاف اللغة السندسكريتية في الهند حسب المؤلف. وبفضل المقارنة تمّ تصنيف اللغات وإيجاد علاقة بعضها ببعض من خلال السمات المشتركة بينها. مثلما كان اهتمام علم اللغة المقارن بدراسة الظواهر الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية في تلك اللغات التي تنتمي إلى أسرة لغوية واحدة.

أما علم اللغة التاريخي فتظهر مهمته من خلال تسميته، فهو العلم الذي يتبع تطور لغة من اللغات في مراحل تنقلها المختلفة عبر العصور اعتمادا على ما تقدّمه النصوص المدونة من معلومات، وهو العلم الذي أطلق عليه سوسور تسمية الدياكرونية (أي الزمانية أو التعاقبية)، في مقابل علم اللغة الوصفي الذي يتناول بالدراسة لغة واحدة دراسة علمية في زمن محدّد ومكان محدّد، من خلال تحديد المستوى اللغوي الواحد من ناحية: الصوت، والصرف، والتّركيب، والمعجم، وبذلك يمكن القول في التوجّه التاريخي للدراسة اللغوية أنّ "اللّسان مادام حيّا لا ينفكّ يتحوّل ويتكيّف بحسب حاجيات مجموعة هي بنفسها تتطوّر، ويعكس رؤية للأشياء تتجدّد باستمرار، فلألسن تاريخ شأنها شأن الجماعات التي تتكلّمها، فهي أشياء حادثة لا أشياء ثابتة" (روبير مارتن، 2007، ص 141). لقد تمكّن سوسور من الخروج عن ذلك التّصوّر الغامض حول إمكانية دراسة لغة واحدة بواسطة المنهج المقارن، وبذلك يكون سبّاقا إلى تطبيق المنهج الوصفي في دراسة اللغة البشرية، وتحقيق فائدة في مجال تعليم اللغات الأجنبية، وتعليم النّاس الطّرائق الصّحيحة في ممارسة لغاتهم، ولذلك يعدّه بعضهم "أكثر المناهج اللسانية شهرة وتعدّد مدارس، وعدد دارسين، واتّساع زمان، وتخصيص درس، وتحديد أصول... وجعل اللسانيون الوصفيون جهودهم منصبة على توصيف اللغة التي يتواصل بها القوم لا أن ينكفئوا إلى الماضي ينقبون دهاليز التاريخ عن اللغة ونشأتها..." (وليد محمد السّراقي، 2019، ص 37).

16.2. الكلام واللغة واللسان:

وضّح المؤلف في هذا الفصل الفروق بين هذه الألفاظ؛ وذلك في ضوء علم اللغة، فبعد أن عرض المؤلف الاختلافات الواردة بين هذه المصطلحات من خلال تحديدها عند بعض العلماء القدامى والمحدثين، وعند سوسور بخاصّة مادام هو من أثارها بطريقة مميّزة وتبعه في ذلك عدد من الباحثين اللسانيين ومن بينهم محمد حمد يونس علي الذي يقول "ويقصد بالكلام ما ينشأ عن الاستخدام الفعلي للغة، أي ناتج النّشاط الذي يقوم به مستخدم اللغة عندما ينطق بأصوات لغوية مفيدة. وبينما تتسم اللغة بالطّابع الاجتماعي بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في أذهان أفراد المجتمع" (محمد محمد يونس علي، 2004، ص 53). ويتوصّل المؤلف إلى أنّ اللسان جاء بعد اللغة والكلام من حيث النّشأة، بمبرّر عدم

إمكانية ثبات اللسان إلا بعد مرور أجيال وأجيال عبر حقبة زمنية مختلفة، فتحدث علاقة تأثير وتأثر بين اللسان من جهة وبين الكلام واللغة من جهة أخرى، فيتأثر اللسان باعتباره نتاج ما يصدر عن الأفراد من أقوال وملفوظات Enoncés، وباعتباره متشكلاً من المخزون اللغوي للأفراد والجماعات، في حين يؤثر فيهما (اللغة والكلام) لأن المتكلم لا تنقطع محاولاته عن اتقان أساليب التعبير وصقل ملكته اللغوية، ولذلك نجد سوسور يحاول توضيح الحدود الفاصلة في القضية قائلاً "اللغة تختلف عن الكلام في أنها شيء يمكن دراسته بصورة مستقلة، فاللغات البائدة (الميتة) مع أنها لم تعد تستخدم في الكلام، نستطيع بسهولة أن نتعلم أنظمتها، فنتخلص من بقية العناصر اللسان الأخرى، بل إن علم اللغة لا وجود له إلا إذا أقصيت العناصر الأخرى" (فردينان دي سوسور، 1985، ص 33).

17.2. وظيفة اللغة:

تحت هذا العنوان يسرد المؤلف عدداً من آراء الدارسين ونظريات الباحثين في تحديد الوظيفة الأساسية للغة، ويقول: "إنَّ حَصْرَ جميع وظائف اللغة في غرض واحد لا يخلو من مغالاة" (حاتم الضامن، 1989، ص 133)، موضحاً أنَّ (التعبير) أو (التبليغ) هو أعمُّ من اللغة، ولا يصحُّ أن نطلق على بعض صوره أنه لغة، إذ نجده يقول "سنجد أنَّ التعبير يتخذ عدّة صور، ولا يمكن أن نطلق على بعضها تسمية اللغة على سبيل المجاز، وسنجد أنَّ التبليغ مفهوم أعمُّ من اللغة، إذ أنه يمكن أن يحدث بعدة طرق من جملتها اللغة" (حاتم الضامن، 1989، ص 133).

ثمَّ انطلق في عرض وظائف اللغة على النحو التالي:

-الوظيفة الاجتماعية.

-الوظيفة النفسية.

-الوظيفة الفكرية.

بعد ذلك عاد إلى الحديث عن وظيفة اللغة في أساسها، ومن حيث كونها:

♦ وسيلة للتعبير؛ وفرَّق في ذلك بين التعبير وبين اللغة، وما اللغة إلا من وسائله الراقية التي يملكها الإنسان.

♦ وسيلة للتبليغ؛ وأوضح كيفية اشتغال هذه الوسيلة، ومراحلها.

يتوصّل المؤلف إلى تصوّر مهمّ يؤكّد فيه على العلاقة الوطيدة التي تربط الفكر باللغة، فاللغة تسمح للفكر بالحصول على تعاريف جاهزة وعلى تصنيف للأشياء وتمييزها لبعضها البعض لتفادي التداخل، مثلما تساعد الإنسان على اكتساب ما يحتاجه من صيغ وأساليب متداولة ليتمكن من

توظيفها أثناء الممارسة الفعلية للغة. وبعد تحديده لمهمة اللغة من حيث كونها وسيلة للتعبير وللتبليغ يخلص إلى أنّ جميع اللغات خاضعة لتصوّر واحد وهو تمثّلها في مجموعة من العلامات أو الرموز المشتركة بين أفراد مجتمع واحد، وانطلاقاً منها يظهر كلّ من دور الكتابة، والقراءة، والتعبير ونتائج توظيفها في المجتمع قصد تحقيق التواصل، علماً أنّ "الكتابة ليست إلا وسيلة اختيارية، فمحرك التواصل اللغوي الحقيقي هو اللغة المنطوقة التي نكتسبها في طفولتنا" (ستيغن بينكر، الغريزة اللغوية، 2021، ص 20)، عملاً بأسبقية المنطوق على المنطوق وأفضلية التواصل باللغة المنطوقة.

18.2. اللغة والفكر:

انطلاقاً ممّا سبق في الحديث عن وظائف اللغة جاء هذا العنوان؛ لتوضيح العلاقة بين اللغة والفكر، ووصف المؤلف هذا المبحث كونه من أشدّ مباحث علم اللغة تعقيداً وأكثرها طرافةً -في آنٍ واحد-. فتبعاً لما ذهب إليه المؤلف في المحاور السابقة، نلاحظ تكراره لفكرة العلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر، وفي ذلك يقول مرّة أخرى "هما وجهان لعملة واحدة" (حاتم الضامن، 1989، ص 139)، ويستنجد بقول العالم دولا كروا Delacroix "إنّ الفكر يصنع اللغة في الوقت نفسه الذي يصنع فيه من طرف اللغة" (حاتم الضامن، 1989، ص 139)، فبعد أن حدّد كلا المصطلحين من حيث اعتبار اللغة نسقا من الإشارات وتختلف عن لغة الحيوان... والفكر الذي اعتبره الحيز المتضمّن للتصورات، والتخيّل، والذاكرة، والدكاء... يتوصّل إلى حقيقة أنّه لا يمكن للفكر التعبير عن شيء إلا بواسطة اللغة، ثم إنّ سنّة الله في خلقه أن منح الإنسان فكراً وجهازاً لغوياً، وبذلك تتحدّد وظيفة كلّ من الفكر واللغة بتبادل المعطيات، فإن كانت وظيفة الفكر منحصرة في التفكير بالاستناد إلى عدّة عوامل، فوظيفة اللغة تتحدّد عن طريق الجهاز اللغوي البشري الضامن للنطق والتعبير.

وبعد عرض إشكالية علاقة الفكر باللغة يتوصّل المؤلف في آخر التحليل إلى فكرة أسبقية الفكر عن اللغة من الناحية الزمنية، ويستند في ذلك إلى كون الطّفل يأتي إلى الحياة بفكر ثم يكتسب اللغة (الفكرة ذاتها التي ذهب إليها نعوم تشومسكي) من حيث مجيؤه إلى الحياة بمؤهلات تمنحه القدرة على اكتساب اللغة، وبذلك يكون الفكر واللغة مكملين لبعضهما البعض، إذ أنّ القدرة على التعبير مرتبطة بالقدرة على التفكير.

19.2. تطوّر اللغة مع تطور الفكر:

وهذا العنوان ثمرة المبحث السّابق؛ فلأنّ اللغة هي وعاء الفكر، فإنّها تحفظه وتعبر عنه وترقى برقيّه، ويخلص إلى أنّ العلاقة بين اللغة والفكر علاقةً لزوميّة.

20.2. التطوّر اللغوي:

قدّم لهذا الفصل بمقدّمة عن أمور باتت بديهية عند علماء اللغة، وهي: أنّ اللغة كائن حيٌّ. وأنّها ليست من صنع فردٍ أو أفراد؛ وإنّما نتيجة حتمية للحياة في مجتمع يضطر أفرادُه إلى وسيلة للتفاهم

والتعبير، والتبليغ وتبادل الأفكار. وأنَّ اللغة العربيَّة لها وضعها الخاص بين اللغات؛ لارتباطها بالقرآن الكريم. ثمَّ شرعَ في الحديث عن نوعين من التطُّور: التطُّور الصوتي؛ والتطور الدلالي؛ فبيَّن خواصَّهما وعوامهما. وفي الحقيقة استخدام اللُّغويين المحدثين لمصطلح التطُّور لا يعني تحديد هذا التطُّور وتقييمه من حيث الإيجاب أو السلب، ولكن للدلالة على التَّغير ليس إلَّا.

21.2. اللغة والكتابة:

يوضِّح هذا الفصل مقامَ الكتابة من اللغة، فيبيِّن أنَّ الكتابة - في أحسن أحوالها - ما هي إلَّا محاولة للتعبير عن اللغة في واقعها الصَّوتي (الأساسي)، وأنَّ هذه المحاولة إمَّا أن تكون دقيقة أحيانًا، أو غير دقيقة في أكثر الأحيان؛ لأنَّ اللغة ظاهرة صوتيَّة تُسمَع بالأُذن، والكتابة هي ترجمةٌ لهذه الظَّاهرة إلى أخرى كتابيَّة تُرى بالعين، وهي بمعنًى آخر: تنقل اللغة من بُعدها الزَّماني إلى المكاني؛ ولذلك يقول المؤلِّف: "علينا أن نميِّز دائمًا بين الطبيعة الصوتيَّة للغة، وكيفية تدوين هذه اللغة؛ فالخط العربي شيء، واللغة العربيَّة شيء آخر." ثمَّ شرعَ في بيان طبيعة الكتابة العربيَّة، وأنَّها تسعى لتكون ذات إمكانيَّات لمحاولة التعبير عن الواقع الصوتي، ولكن تبقى ثمة فروقا بين الكتابة والصَّوت؛ في الزيادة والحذف مثلاً، وأنَّ بعض الأحرف قد يكون لها استخدامات متنوِّعة للتعبير عن الواقع الصَّوتي، فتارةً يكون صامتًا وتارةً يكون طويلاً. ثمَّ بيَّن أهميَّة الكتابة، ومراحل تطوُّرها على مرِّ التاريخ.

3. خاتمة:

لقد حاول المؤلِّف في كتاب (علم اللغة العام) تمثُّل أفكار دي سوسور على نحو مختصر في كثير من الأحيان، وكانت المباحث كثيرة وقاربت العشرين مبحثاً. وعودة المؤلِّف إلى أفكار سوسير كانت غايتها الاقتراب أكثر من أفكاره كما هي موجودة في كتابه الشَّهير "دروس في اللسانيات العامَّة"، فلم يكن التَّركيز على الكتابات أو المخطوطات، التي ربما لم تظهر بعد أو لم تكن هي غاية المؤلِّف حاتم الضامن، فسوسير لم يكتب هو محاضراته بنفسه مثلما هو معلوم، فربما لم يكن سوسير قد توصل إلى فكرة كاملة واضحة حول ما يجب أن يكون في الدراسات اللسانية بشكل دقيق، والمدقق في المحاضرات نفسها، يشعر أن سوسير كان يطرِّق ويعدِّل من أفكاره أثناء التَّقدِّم في هذه المحاضرات، ولذا فإن الكثير من الذين يتعرَّضون لأفكاره بالشرح والتحليل يضطرون إلى التَّقديم والتأخير فيها، لكي تبدو أفكاره أكثر انسجاماً وتماسكاً، ولا ننسى أنَّ الصيغة النهائيَّة لمحاضراته هي من تأليف شارل بالي، وألبرت زيشمهاي، وليست من تأليفه هو نفسه.

حاول المؤلِّف كذلك عرض أفكار سوسير التي كانت محلَّ التعديل والتطوير، وأحياناً محلَّ إساءة التفسير أيضاً، أو بتعبير أحدهم تمَّت إعادة بناء فكر سوسير ليقدم أغراضاً معينة، لذا فمن الضروري فهم آراءه الأساسية على وجهها الصحيح، ومعرفة معرفتها بدقة، وجدير بالذِّكر أنَّ سوسير ألقى

محاضراته في الفترة التي كانت أوروبا على حافة انهيار تاريخي كما يقول تيري إيجلتون، ولم يعيش سوسير طويلا ليتمكّن من رؤية آثار الحرب العالمية الأولى، ولا الثورات التي شهدتها أوروبا بعدها، وفي ظل ذلك الوضع السياسي والاجتماعي المزري يتم إعادة النظر في آراء سوسير وتوسيع دائرة تطبيقها، لتنتقل من حقل "لسانيات اللغة" إلى حقول أخرى كثيرة، ويكون منطلقها مع الشكلائية الروسية التي أدت دورا مهما في معالم تطوّر البحث اللساني البنيوي وما بعد البنيوي، إذ جلت القضايا المعالجة في هذا الكتاب اكتسبت أبعادا عظيمة في الدراسات اللسانية المعاصرة، فقد حظيت بمعالجة كثير من الباحثين من تخصصات مختلفة وفتحت الأبواب على ظهور عدّة نظريات تبرز تطوّر الدرس اللساني، الذي أصبح قرين تطوّر الإنسان في جميع التخصصات انطلاقا من علاقة التأثير والتأثر بينها واستشراف دراسة لغة الإنسان بوسائل حديثة. ويمكن القول كذلك إنّ حاتم الضامن من المؤلّفين العرب الأوائل الذين حاولوا جمع المسائل اللسانية السوسورية الكبرى وتبسيطها للمتعلّم العربي قصد تمكينه منها ولو بحزء قليل، فهو الذي يقول في مقدّمة الكتاب «لقد حاولت في هذا الكتاب أن أضع أمام طلبتنا الأعزاء ما هو ضروري من المعارف اللغوية التي ينبغي عليهم أن يبدأوا بها إذا ما أرادوا التخصص بعلم اللغة».

4.الهوامش:

- التواتي بن تواتي، (2012). المدارس اللسانية في العصر الحديث ومناهجها في البحث، ط2، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر.
- جرهارد هلبش، (2003). علم اللغة الحديث، ترجمة سعيد حسن بحيري، ط1، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
- حاتم صالح الضامن، (1989)، علم اللغة العام، مطبعة التعليم العالي، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، كلية الآداب، جامعة بغداد.
- خولة طالب الابراهيم، (2006)، مبادئ في اللسانيات، ط2، دار القصة للنشر، الجزائر.
- روبير مارتين، (2007). مدخل لفهم اللسانيات، ترجمة عبد القادر المهيري، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان 2007، ص141.
- فردينان دي سوسور، (1985). علم اللغة العام، ترجمة يوثيل يوسف عزيز، ط1، دار آفاق عربية، بغداد.
- كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، مدخل، ط1، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص41. نقلا عن: حسن كزار، (2018). اللسانيات الاجتماعية في الدراسات العربية الحديثة، التلقي والتّمثلات، ط1، دار الرافدين، بيروت، لبنان.
- ماريو باي، (1998). أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، ط8، دار عالم الكتب، المملكة العربية السعودية.
- مازن الوعر، (1988). قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، القاهرة.
- محمد محمد يونس علي، (2004). مدخل إلى اللسانيات، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان.

- هادي نهر، (2008). علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي، ط1، علم الكتب الحديث، الأردن.
- وليد محمد السراقبي، (2019). الألسنية، مفهومها، مبادئها المعرفية ومدارسها، ط1، دار العتبة العباسية المقدسة، بيروت، لبنان.
- جوزيف فنديس، (2014). اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.
- ستيفن بينكر، (2021). الغريزة اللغوية، كيف يخلق العقل اللغة، ترجمة الطيب الحصني، ط1، مكتبة 1231، العربية السعودية.